المحاضرة (07)

2/ النظرية النفسية

ركزت هذه النظرية في تفسير الظاهرة الإجرامية على الجانب النفسي لدى الفرد، حيث غلبت العوامل المرتبطة بالتكوين النفسي للمجرم، دون إعطاء أهمية تذكر للتكوين العضوي للفرد أو للعوامل الخارجية أو الاجتماعية المحيطة بالفرد وقال بنظرية التحليل النفسي عالم النفس الشهير " فرويد"، وسوف نتعرض لمضمون النظرية ثم لتقديرها.

لم يهدف فرويد من أبحاثه بصفة أساسية وضع نظرية لتفسير السلوك الإجرامي بصفة خاصة ، ولكنه أراد دراسة تأثير الجهاز النفسي للفرد على سلوكياته ومن بين هذه السلوكيات السلوك الإجرامي باعتباره سلوكا بشريا.

وقد حاول أنصار مدرسة التحليل النفسي تفسير الانحرافات السلوكية في ضوء عوامل نفسية وتربوية تتعلق بالتنشأة الاجتماعية أو في ضوء نظريتهم عن الشخصية، أو في ضوء تصورهم المكونات و ميكانزمات الحياة النفسية عند الإنسان مع التركيز المفرط على الدافع الجنسي، أو ما يطلقون عليه أحيانا غريزة الحياة في مقابل العدوان أو غريزة الموت فالطابع الغالب في هذه المدرسة يلزم بالرجوع إلى نفسية المجرم و تحليل شخصيته تحليلا كاملا يبتدأ من مراحل عمره الأولى ويشمل مختلف مراحل حياته ثم البحث في علاقاته مع الآخرين، ويرى (فرويد) أن من شأن هذا التحليل الكشف عن صراعات النفس الداخلية ومن ثم الكشف عن العوامل الدفينة للأجرام ، لذلك قسم فرويد النفس الانسانية إلى ثلاثة أقسام وهي:

القسم الأول: الذات الدنيا (الأنا الدنيا - النفس ذات الشهوة - هو ID) ويشمل هذا القسم الميول الفطرية والاستعدادات الموروثة والأحاسيس والغرائز البدائية (كالاعتداء والانتقام والتعذيب والأفعال الجنسية المحرمة) التي لا تتفق مع النظام الأجتماعي المتطور.

أن اهتمام الذات الدنيا ينصب في الانسياق وراء اللذة وإشباع الشهوات بأي ثمن دون إعتداد بمنطق أو مثل أوقيم، حيث بقت مكبوتة في النفس بسبب التربية والتعليم، ولكنها في حالة تهيأ الظروف المناسبة تظهر للبحث عن الفرص المؤاتية لأشباعها. وقد إعتبر (فرويد) الأحلام بأنها الشكل المقنع للميول البدائية فهي تعبر عن الرغبة المكبوتة في أعماق النفس سواء تعبر عن الخير أو

الشر، وكذلك قال عن النوم الطبيعي بكونه يمثل مرونة الحياة العقلية وشبهه بحالة انتزاع الملابس عند الحلم ثم ارتدائها عند اليقظة، وجعل الحلم موضوع للتحليل النفسي فهو يمثل ظاهرة للحياة النفسية اثناء النوم... وقد شبه النوم الطبيعي بالتنويم المغناطيسي الاصطناعي) من حيث الانصراف عن العالم بأسره فالموقف النفسي في كلاهما مماثل.

وقد بين (قرويد) بأن الذات الدنيا هي العالم الذاتي الحقيقي الباحث عن اللذة دون الالم فهو غامض و مبهم في الشخصية، حيث يتم التوصل إلى جزء منه عن طريق الاحلام والامارات العصبية. ويمكن القول بان الذات الدنيا هي نتاج التطور المثل النفسية للهبة البايولوجية للفرد)

القسم الثاني: الذات (الانا- النفس - العقل :(ECO - هي مجموع الملكات العقلية المستمدة من رغبات النفس بعد تهذيبها وفقا لمقتضيات الحياة الاجتماعية، فهي اذن الجانب الواعي (العاقل) المنسجم مع الواقع... وتتحدد وظيفته في القيام بالتكييف بين النزعات الفطرية (الذات الدنيا) والقيم الاجتماعية، أي يقوم بكبح جماح الذات الدنيا على اشباع رغباتها الغريزية وحملها على التعبير عن نزعاتها بشكل يتفق مع مقتضيات البيئة ولا يتعارض مع ما تأمر به الأنا العليا... هذا وان فشل الذات في هذه المهمة سيؤدي إلى انفلات الشهوات بشكل يتعارض مع القيم الاجتماعية، او يؤدي إلى تسامي النشاط الغريزي عن طريق كبته فيما وراء الشعور وهذا يعني ان عجز الذات يسهم في ظهور كافة انواع السلوك الانحرافي بما فيه السلوك الإجرامي.

وقد شبه فرويد الذات (بالفارس) والذات الدنيا (بالفرس الجموح) والذي يدفع براكبه في أغلب الأحيان الوجهة التي يريدها، فوظيفة الفارس كبح جماح الفرس الغرض السيطرة عليها والا انساق معها حيث تريد وهذا يعني الأخطار والأهوال، وعليه فأن التفكير والفطنة والذكاء قابليات موروثة فمن يستخدمها بأسلوب التربية والتعليم والتجارب سيولد التفكير بفاعلية أكبر تساعد على الوصول للحقيقة... ويمكن القول بأن الذات هي حصيلة تفاعل بين الفرد والواقع الموضوعي والعمليات العقلية.

هذا وقد قسم فرويد الذات إلى:

أ- الشعور -العقل الظاهر : فهو وسيلة الوعي والاحساس والادراك المباشر.

ب- ماقبل الشعور (العقل الكامن): ويمثل الافكار والخواطر والذكريات القابلة للاستظهار بحيث يمكن للفرد أن يسترجعها ويتذكرها كلما اراد ذلك.

ج- اللاشعور (العقل الباطن): ويمثل الأفكار والخواطر التي ليس بامكان الفرد أن يسترجعها الا في حالات شاذة كالاحلام او التحليل النفسي او التنويم المغناطيسي. وقد دمج فرويد الشعور وما قبل الشعور من الناحية العملية فأصبحت الذات تتكون من الشعور واللاشعور، والسبب في ذلك هو وجود قوة خفية تمنع الذكريات والخواطر من الظهور في الشعور، اما لكونها تكون ضد التقاليد والعادات او لكون الذكريات والافكار تحمل من الالام لا يمكن للشعور أن يتحملها وتسمى هذه القوة (الكبت)... وعليه فان اللاشعور يملك قوة وتأثير النفس الإنسانية يفوق الملكات الشعورية فالعقل الباطن يشتمل على اقوى مظاهر الحركة الفكرية والنشاط النفساني وله تأثير في الأفكار والمشاعر والسلوك الشعوري والسبب في ذلك إلى أن اللاشعور يحوى ذكريات الطفولة والحوادث النفسية المكبوتة اضافة إلى النزاعات والاستعدادت والميول الفطرية الموروثة وهذا كله يؤثر على الشخصية بحيث يتكيف وفقا لها السلوك الصادر عن هذه الشخصية.

القسم الثالث: الذات العليا (الانا العليا - الضمير- الجانب المثالي من النفس (super- Ego) : وتشمل المبادئ السامية التي اكتسبها الطفل من والديه ومعلميه وكذلك القيم الدينية والاخلاقية والاجتماعية الموروثة عن الاجيال السابقة والمكتسبة من البيئة الاجتماعية الحالية. وتمثل بكونها مصدر الردع الحقيقي للشهوات (الذات الدنيا) ومنها تستمد (الذات قوة الردع لكبح جماح وضبط النزعات والغرائز الذات الدنيا). وعليه فالذات العليا تراقب الذات في اداء وظائفها تجاه الذات الدنيا ومحاسبتها عن التقصير في أداء مهمتها فتوجه لها النقد والتأنيب اذا ما سمحت اللذات الدنيا) بتغليب شهواتها على القيم الاجتماعية. ويذهب (فرويد) إلى أن الذات العليا) تمثل (صوت الضمير) و قد قسم الذات العليا إلى:

أ- الذات المثالية: وتمثل تطابق الأفكار والانطباعات لما هو جيد اخلاقيا حسب وجهة نظر الوالدين فيتم تعليم الطفل للقيم والمثل من خلال تشجيعه بحب تلك القيم والمثل كتشجيعه على النظافة.

ب- النفس: وتمثل تصورات واحاسيس لما يعتبره الوالدين ردئ وآثم ويتبلور هذا التصور من خلال عقاب الطفل كعقابه على قدراته وعدم اهتمامه.

إذا الذات المثالية والنفس جانبان مضادان لزاوية أخلاقية واحدة. فالذات العليا للطفل هي انعكاس للذات العليا للوالدين اضافة إلى المربين والمعلمين ورجال الدين والاداريين . ويمكن القول بأن الذات العليا هي نتاج التقاليد الحضارية.

أثر الخلل النفسي في السلوك:

يرى فرويد أن السلوك الفردي يتوقف على العلاقة ما أن الذات تكونت خارج الذات الدنيا، والذات العليا تكونت خارج الذات، فبتفاعل الأقسام الثلاثة للتآلف والاندماج من اجل تحقيق التوازن الداخلي التي يتسم بها الشخص العادي. وقد يحدث عن هذا التفاعل عدم توافق مما يؤدي إلى ارتكاب الفرد للجريمة، وعليه فان تغلبت الذات الدنيا كان السلوك منحرفا وان الشخصية غير ناضجة، اما ان تغلبت الذات العليا كان السلوك قويها وان الشخصية ناضجة. وقد اعتمد (فرويد) في تفسيره للسلوك الإجرامي على التحليل النفسي باعتباره (نظرية للشخصية) فحدده على أساس (فكرة ديناميكية تأخذ بالحياة العقلية إلى التفاعل المتبادل بين الدفع والردع للقوى) .

فالذات الدنيا تملك قوة الدفع. أما الذات والذات العليا تملكان قوة الردع لمنع الافعال الشريرة الصادرة من الذات الدنيا. إضافة إلى امتلاكهم للقوى الدافعة. وقد حدد (فرويد) الصراعات النفسية على ما يأتي:

1 -الذات الدنيا مع الذات ضد الذات العليا.

2- الذات مع الذات العليا ضد الذات الدنيا. وفق ما تقدم فان كل من الذات الدنيا والذات العليا يحاول ان يسحب الذات لجانبه لاجل تحقيق أغراضه. لهذا تعد الذات هي بداية وأساس كل صراع والذي تكون نتيجته مؤثرة تأثيرا بالغا في نمو الشخصية .

فالسلوك الإجرامي يتحقق في حالتين:

أ- عدم تمكن الذات من تحقيق الانسجام بين الذات الدنيا ومقومات الحياة الاجتماعية.

ب- عدم تمكن او عجز الذات العليا من القيام بواجب الرقابة والردع لاجل قيام الذات الدنيا بأشباع رغباتها دون الإخلال بالواقع الاجتماعي.

ووفقا لذلك تتحقق الجريمة اما:

أ-بانفلات الرغبات الشهوانية.

ب-عن طريق العقد النفسية المكبوتة في الجانب اللاشعوري من العقل. وبهذا تجرف الذات الدنيا الذات في طريقها لتحقيق رغباتها دون مراعاة للقيم الاجتماعية ومنها سلوك الجريمة. وبين (فرويد) تفسيره للسلوك بان الطفل يحمل نزعات غريزية تكون في البداية نزعات شعورية ثم ترتد إلى اللاشعور اثر اصطدامها بالبيئة لما تشمل من عادات وتقاليد واصول التربية. فاللاشعور يتمثل بالميول والنزعات الفطرية وتقاليد وقيم المجتمع، وبممارسة الذات لدورها في كبح جماح الذات الدنيا تخمد الميول والنزعات الفطرية لدى الطفل وتستقر في اللاشعور وينشأ عن الردع المتواصل لرغبات الطفل قوة الكبت (ملكة الكبت) .

وعليه فأن كانت تربية الطفل قائمة على اسس متوازنة توفق بين الرغبات والميول وبين أصول التربية النفسية سيؤدي هذا إلى تصعيد الرغبات بصورة صحيحة.

أما اذا كانت تربية الطفل قائمة على اسس غير سليمة لا توفق بين الرغبات واصول التربية فسيؤدي إلى خلق حالة الكبت والمرض وتعرض الفرد مستقبلا اللامراض العصبية والاضطرابات النفسية مما يتسبب في نشأة العقد النفسية (كعقدة اوديب - اليكترا - النقص - التقمص - الذنب).

وعلى ضوء ذلك التقسيم للنفس البشرية فسر فرويد السلوك الإجرامي بأحد أمرين:

إما إخفاق العقل "الأنا" عن تهذيب النفس "الأنا الدنيا" وعجزه عن تحقيق التوافق بين الميول والنزعات الغريزية وبين القيم والمبادئ السائدة في المجتمع.

وإما انعدام الضمير "الأنا العليا" أو عجزه عن ممارسة وظيفته في السمو بهذه الميول والنزعات الغريزية وذلك لعدم قيامه بتأنيب العقل "الأنا"

وفي كلتا الحالتين تنطلق النزعات الغريزية من منطقة اللاشعور إلى منطقة الشعور دون أي احترام أو تقيد بالقواعد والضوابط الاجتماعية والأخلاقية الواجبة الإتباع

وقدم فرويد صورا عديدة لما يحدث للنفس البشرية من خلل يؤدي إلى ارتكاب الجريمة نذكر من ذلك عقدة الذنب وعقدة أوديب.

ويقصد "بعقدة الذنب" ما يصيب الشخص من شعور بعد ارتكاب جريمة ما أو سلوكا غير مشروع نتيجة عدم ممارسة الضمير وظيفته في مراقبة العقل وردعه ، وينتاب الشخص هذا الشعور عندما يستيقظ الضمير ويستعيد وظيفته في تأنيب العقل وإشعاره بالذنب، وقد يسيطر هذا الشعور بالذنب على الفرد لدرجة الإحساس بأنه جدير بالعقاب ، فيندفع تحت تأثير هذا الإحساس بالذنب إلى ارتكاب الجريمة مفضلا في ذلك ألم العقوبة حتى يتخلص من الألم النفسي الذي يعانيه. وغالبا ما يحرص هذا النوع من المجرمين على ترك أدلة أو آثار تساعد في التعرف والقبض عليه وقد يصل به الأمر إلى حد الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

أما "عقدة أوديب " فتنشأ نتيجة صراع كامن في اللاشعور وتفسر ارتكاب بعض الجرائم.

ومؤدى "عقدة أوديب" أن الغريزة الجنسية للابن تتجه لا شعورية نحو الأم والذي ينتج عنها إحساس الابن بالغيرة من أبيه نتيجة العلاقة العاطفية التي تربط الأب والأم. وفي نفس الوقت يشعر الابن نحو أبيه بالحب نتيجة قيام الأب برعاية هذا الابن وتلبية رغباته ومتطلبات حياته. ونتيجة ذلك يتولد داخل الطفل شعور مزدوج بالحب والكراهية نحو أبيه. وإذا لم يقم العقل "الأنا" بوظيفته في ضبط هذه المشاعر ووضعها في إطارها الذي يتفق مع القيم والمبادئ السائدة في المجتمع فإن الأبن سوف يقدم على ارتكاب الجريمة

***تقدير النظرية:**

أبرزت هذه النظرية دور الجانب النفسي للشخصية الإنسانية وتفسيره للسلوك الإجرامي، وهو ما كشف عن إمكانية علاج بعض طوائف المجرمين المصابين بخلل نفسي. ومع ذلك فقد وجهت إلى هذه النظرية عدة انتقادات منها:

أولا : حاولت هذه النظرية إرجاع كل صور سلوك الفرد وردود أفعاله إلى عامل نفسي ، والحقيقة أن طريقة التحليل النفسي تؤدي إلى نتائج مبالغ فيها ولا يمكن التسليم بها بصورة كلية

ثانيا : ليس صحيحا أن ضعف الضمير يقود حتما إلى ارتكاب الجريمة ، فهناك من الناس من يضعف ضميرهم ولكنهم لا يقدمون على ارتكاب الجريمة

ثالثاً : يقود منطق النظرية إلى اعتبار أن جميع المجرمين يتميزون بالقسوة وغلظة القلب وانعدام العواطف ، وهذه النتيجة لا يمكن التسليم بها حيث أثبتت الدراسات والأبحاث أن هذه الصفات لا تصدق على كافة المجرمين.